كراسات المنتدى

Les Cahiers du FTDES

جويلية 2019

الكراس عدد 2

سوسيولوجيا الفعل الجماعي في تونس منذ 14 جانفي 2011

تعدد طرق الإنخراط و تنوع أشكال الإحتجاج

الكراس عدد 2

جويلية 2019

Ost Observatoire Social Tunisien
المرصد الاجتماعي التونسي
FORUM TUNISIEN POUR LES DROITS ÉCONOMIQUES ET SOCIAUX

FTDES
Forum Tunisien pour les Droits Économiques et Sociaux

أمين الحسيني- باحث في علم الاجتماع

الباحثون الفاعلون كأفق تفكير:

من مدارج الكليات إلى الفضاء العام

ملخّص:

من هو الباحث الفاعل؟

رغم كثرة الدراسات العلمية التي تناولت الفاعلين في الحركة الاجتماعية على اختلافهم إلاّ أنّنا لم نحظَ بتعريف واضح ومباشر لمفهوم الباحث الفاعل، ولذلك يُحاول هذا المقال في مقام أوّل تقديم مفهوم له، وتحديد دوره وموقعه صُلب الحركة الاجتماعية مُقدّما تصوّراً حول بورتريه هذا الفاعل. ولمزيد توضيح هذه الرؤية قمنا بإدراج مقارنة بينه وبين باقي الفاعلين النوعيين على غرار الفنانين والمدونين والصحافيين، وفي الأخير قمنا بدراسة مدى تأثيره في الحركة الاجتماعية وتأثّره بها، معتمدين في ذلك على مقابلات تمّ إجراؤها مع باحثين في مجال العلوم الإنسانية وناشطين ميدانيين في ذات الوقت.

Abstract

Who’s the « active researcher»?

In spite of the many bibliographic researches that have studied the different types of « actors » in the social movements, we haven’t encounter a clear and obvious definition of the concept of «the active researcher ». That’s why we will try in this paper to define this concept, define its role and its position in the social movement with a presentation of a portrait of this « actor » .

And in order to have a further look on this issue, we have made a comparison between the « active researcher » and the other typical

actors such as artists, bloggers and journalists. Finally, we have studied how he influences the social movement and to what extent does he impacts it ; making in that different interviews with specialist researchers in human sciences and field activists.

تعيس هو البلد الذي في حاجة إلى أبطال

بريخت

"يجب علينا أن نجلس ونفكّر فقط!"[1]

هكذا صرخ الفيلسوف السلوفيني سلافوي جيجك (Slavoj Žižek) طالباً من العالم بأسره أن يصرف النظر عن الفعل ويتوقف لبرهة من أجل إعادة التأمّل من جديد.

إنّ هذا الواقع الذي يحتكم إلى دينامية مخيفة ومرعبة صار شيئاً فشيئاً غازياً، انفجارات تكنولوجية متتالية، كون برمته يغرق وسط فضاء سبرنيطيقي دقيق ومعقّد، حياة ملايين من البشر مرتبطة بأهواء السوق، ثورات هنا وهناك، أنظمة تسقط وتنبني أخرى على أنقاضها لتُعاود السقوط من جديد، جماعات تظهر لتختفي مرّة أخرى، وحلفاء الأمس أعداء اليوم!

إنّ هذا الواقع المتقلّب القائم على مبدأ اللاستقرار وعدم الثبات تماماً كماء نهر هيرقليطس (Héraclite) أو كديمومة هنري برغسون (Henri Bergson) التي لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تُعاد إلى الوراء، لم يؤثر فقط على عالم الاقتصاد ولا على المعطيات الجيوسياسية بل مسّ الجسد الاجتماعي وجعل من الفعل البشري -في سياقات تتّسم بالتعقيد- يأخذ أشكالاً ومضامين جديدة، ولعلّ من أدوات قياس هذا الفعل ما تُقدّمه الحركات الاجتماعية من مواد دسمة يجب على الدرس السوسيولوجي أن يلفت النظر إليها ويبحث فيها.

[1] سلافوي جيجك: لنبدأ التفكير الآن
[En ligne] https://www.youtube.com/watch?v=mxe_6F_pm3o (18 Mars 2019)

إنّ الحركة الاجتماعية باعتبارها مجهوداً جماعياً لا تقتصرفقط على خلق نظام جديد للحياة أو فرض تغيير جزئي داخلها، إنها براكسيس شبيه بالميكانيزم الذي تتكاثر به ومن خلاله الفطريات، فتتولّد عنها تغييرات في المؤسسات الاجتماعية وتفرز حالات ثورية في دينامية سيرورتها/صيرورتها.

علاوةً على الجانب المطلبي لهذه الحركات فقد ساهمت إلى حدّ معيّن في خلق صنف فريد من الاندماج الاجتماعي الذي لم يتولّد عن انتماء لعرق واحد أو دين واحد، إذ جمعت بين فاعلين مختلفين مطامح واحدة ترتبط في غالب الأحيان بقيم المواطنة والعيش بكرامة. وهذا يعود على نحو من الأنحاء إلى أنّ مطالبهم لم تكن تخصّ فئة دون أخرى، فلم تقتصر على الشباب فقط أو منطقة معيّنة أو قطاع بعينه (ليست سكتارية) بل ضمّت جميع الشرائح الاجتماعية دون استثناء. وقدّ اعتبر تشارلز تيلي أنّ هذه الحركات تجمع بين فئات اجتماعية مختلفة يجمع بينها إحساس بالظلم والقهر لتُترجم هذا الاحتقان إلى فعل جماعي يهدف إلى تشييد نظام جديد للحياة، وقد قال في هذا الصدد "إنّ الحركات الاجتماعية كما يوحي الاسم هي تنظيمات شاملة مؤلفة من جماعات متنوعة المصالح، تضمّ حال تشكّلها طبقات مهمة في المجتمع مثل العمال والجماعات النسائية والطلاّب إلى جانب العنصر الفكري. والشيء الذي سيجمع هذه القطاعات المختلفة من المجتمع ذات المصالح المتنوعة هو شعور عام بالضيم"[2]

إذ على عكس الأحزاب السياسية التي لها أهداف تخصّها ولها تقاطعات ومصالح تحتكم إليها، فإنّ الحركات الاجتماعية تُمارس من خلال فعلها الاحتجاجي -مهما كان الشكل الذي أخذه- ما يُعرف بال"السياسة الفوقية" (Méta-politique)[3]، فأهدافها لا تقتصر على مساءلة الحكومة فقط في المسائل السياسية بل تسعى إلى فرض تغيير أعمق يلمس

[2] تشارلز تيلي- الحركات الاجتماعية1768/2004- ص33- ترجمة ربيع وهبة- المجلس الأعلى للثقافة-2005- القاهرة

[3] Eduardo ROMANOS "Les Indignés et la démocratie des mouvements sociaux"- La vie des idées

جميع أوجه الحياة الاجتماعية وأولوياتها (التشغيل/ التضخم المالي/ الفساد...)، والجدير بالذكر أيضا اعتماد هذه الحركات على سياسة التدرّج، إذ تنتقل من مطالب معيّنة مثل رفض مشروع قانون ما لبلوغ مطالب أشدّ شمولية كالتشغيل أو القضاء على الفساد وصولاً إلى المناداة بإسقاط الحكومة.

بالعودة إلى الواقع التونسي، سنلحظ أنّ الفاعلين الاجتماعيين خلقوا أطراً مختلفة للاحتجاج سعوْا من خلالها إلى إحداث تغييرات في البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية الخ... على غرار الحركات السياسية الشبابية أو النسوية أو الفيراج...

لكن وبالتوازي مع هذا الزخم في الفعل الميداني خُلق جيل من الباحثين الشباب الذي عايشوا مراحل تشكّلالحركة الاجتماعية، وأوجدوا أطراً مختلفة للتكوين مكّنتهم فيما بعد من التفكير من داخلها وممارسة فعلهم الاحتجاجي سواءً من خلال بحوثهم الأكاديمية أو تأطيرهم ومشاركتهم الميدانية في الحركة الاجتماعية.

الطرح الإشكالي:

مع السعي الحثيث للمنظومة التقليدية لإعادة إنتاج نفسها في جميع المواقع، أفرز السياق الثوري فاعلين مختلفين من حيث الرساميل والأدوار على غرار الفنانين والصحفيين والمدونين والباحثين لفرض صراع مع قوى الارتداد نحو الوراء في جلّ الحقول، وذلك من أجل السيطرة/الهيمنة على الخيرات الرمزية (Les biens symboliques) للمجتمع وإدارتها من جهة، ودفع عجلة تقدّم الحركة الاجتماعية وخلق مسارات جديدة ومن ثمّة تصدير هذا الوعي لعموم الناس من جهة ثانية، باعتبارها مهمة تاريخية يضطلع بها المثقف الملتزم بقضايا مجتمعه.

من هذه الزاوية يتراءى لنا أنّ هؤلاء الباحثين يُمثّلون على نحو من الأنحاء جزءاً من فسيفساء الحركة الاجتماعية، أولاً لكونهم يهدفون إلى تغيير الواقع الأكاديمي والتفرّد بالبحث في القضايا الأساسية والمركزية، التي كانت تُعدّ في المنظومة القديمة تابوهات، وثانياً لكونهم مشاركين في هذه الحركة باعتبارهم عيناً ناقدةً بإمكانها تفكيك آليات السلطة من جهة وفاعلين ميدانيين من جهة أخرى.

فمن هو الباحث الفاعل؟ وما هي سماته؟ وفيمَ يختلف عن باقي الفاعلين؟ وأخيراً ما مدى تأثيره في الحركة الاجتماعية وتأثّره بها؟

المقاربة المنهجية:

سنعتمد في مستوى أوّل على بحث بيبليوغرافي للمراجع التي تناولت المفاهيم ذات الصلة بالباحث الفاعل، أمّا في مستوى ثانٍ سنعتمد على المنهج الكيفي، وتحديداً عبر تقنية المقابلة شبه المسيرة، وهي عبارة عن مجموعة من الأسئلة المحددة والمرتبة ترتيباً منهجياً معيناً تتضمن عدة مواضيع فرعية ومقصودة تتعلق بموضوع البحث. وهو ما سيساعدنا على محاولة فهم دوافع انخراط هؤلاء الباحثين في الحركة الاجتماعية ورصد تمثلاتهم حول الالتزام. وستكون الشريحة المستهدفة موضوع الدراسة من الباحثين الشبان الذين شاركوا فعلياً في الحركة الاجتماعية ميدانيا وعبر مداخلاتهم الإعلامية أو مقالاتهم المنشورة أو الدراسات الذين قاموا بها أو شاركوا فيها.

1- من هو الباحث الفاعل؟

"كونوا واقعيين... طالبوا بالمستحيل!".

لم تكن هذه الجملة مقتطفاً من نص أدبي أو بيتاً في قصيدة، بل كانت أحد شعارات ماي 68 التي خطّها الطلاّب على الجدران الباريسية، معلنين عن انخراطهم في حركة اجتماعية لها مطامحها وأدواتها الثورية.

شارك في تلك الحركة -التي انطلقت من ساحات الكليات بقيادة الطلبة إلى الفضاء العام ليلتف حولها بعد ذلك جموع الناس على اختلافهم- العديد من المفكرين والمبدعين الذين نزلوا إلى الشوارع والتحموا بالجماهير على غرار فرنسوا تروفو وجان لوك غوداروسيمون دو بوفوار وجيل دولوز وألان باديو وجون بول سارتر الذي اعتقله البوليس الفرنسي مع رفاقه حين كانوا يُوزّعون جريدة (La cause du peuple)المناهضة للسلطة.

إنّ تناول مفهوم إشكالي حول الباحث الفاعل ودوره ومكانته داخل الحركة الاجتماعية موضوع هذه الورقة، يضعنا في مأزق سوسيولوجي نظراً إلى انعدام وجود تعريف علمي له، وبسؤالنا للمبحوثين -أثناء إجراء المقابلات- حول كيفية تعريف أنفسهم في سياق الحركة الاجتماعية وأيّ موقع شغلوه داخلها تباينت آراؤهم، فمنهم من رجّح كفّة الفاعل على الباحث، واعتبر أنّ دوره سيقتصر على النضال الميداني، فالجماهير على حدّ اعتباره لا تقرأ بطبعها، وبالتالي فهو لن يختلف عن أيّ فاعل آخر في الحركة الاجتماعية، كما أنّ مسألة التجييش والتأثير في عموم الناس غير مرتبطة بالرأسمال الأكاديمي للشخص، بل بمميزات ذاتية قد توجد في الباحث أو في غيره (شخصية كاريزمية). وهو ما يحيلنا إلى إلغاء صفة الباحث والاحتفاظ بالتعريف الذي خصّ به علماء الاجتماع الفاعلين.

في حين رأى آخرون أنّه يُقدّم إضافة نوعية إلى الحركة الاجتماعية، فقد اعتبره أحدهم أنّه الشخص الذي يقوم بدراسات بحثية علمية في الإنسانيات، ويكون في نفس الوقت منخرطاً في الفعل المجتمعي سواءً بالرأي أو النقد أو المقترحات، ولا يشترط أن تكون أبحاثه الأكاديمية مرتبطة بالحركة الاجتماعية. فيما رأى آخر أنّه يشغل صُلب الحركة الاجتماعية وظيفة الراصد والموثق والناقد لها والساعي إلى تطويرها في آن واحد. وأضاف مبحوث آخر أنّ اعتماد قبعتين -أي باعتباره باحثاً وفاعلاً في آن واحد- يُتيح له أن يحتل موقعاً مميّزاً داخل الحركة الاجتماعية، فالتكوين الأكاديمي يُمكّنه من رأسمال معرفي يجعله مُلِمّاً بتعقيدات الحركة الاجتماعية وقادراً على تفكيك آليات الهيمنة الرمزية للسلطة، وبذلك تكون تصريحاته الصحفية أو الاجتماعات العامة وحلقات النقاش مع الجماهير التي

يقوم بها أثناء الاحتجاجات عميقة لكونها من زاوية علمية/موضوعية ليس بإمكان باقي الفاعلين التطرق إليها. ونخلص من خلال هذا الموقف إلى أنّ أغلب المبحوثين قدّ عرّفوا وجودهم كفاعلين باحثين انطلاقاً من الدور الذي يضطلعون به في الحركة الاجتماعية ومن نوع القيمة المضافة التي يُحققها وجودهم في سياق الفعل الجماعي.

يتراءى للقارئ منذ الوهلة الأولى ازدواجية مفهوم الباحث الفاعل، وكأننا أمام وجودين اجتماعيين حدث انصهار بينهما، فالفاعل في السوسيولوجيا الفيبرية يُقصد به الفرد الذي تُوجّهه قيم معيّنة فيُضفي معانٍ على فعله. وقد خَلَفَهُ في هذا التوجه رايمون بودون (Raymond Boudon) الذي اعتبر أنّ "الظاهرة الاجتماعية كيفما كانت هي نتاج لأفعال ومواقف ومعتقدات وسلوكات الأفراد"[4]، في حين رأى آلان توران (Alain Touraine) أنّ الذات الفاعلة هي المتحررة من الهيمنة التي تمارسها الأنظمة بشكل عام، وبالتالي فإنّ ما يُميّز هذه الذوات الفاعلة عن غيرها قدرتها على الفعل والحركة أي أنّها حرّة في اختياراتها وساعية إلى التغيير، وقد قال في هذا الصدد "ليس عنصرا من عناصر التعارض (الذات الفاعلة من جهة والعقل من الجهة الأخرى)، بل كتعبير محسوس عن رفض مزدوج وعن قرار. هناك رفض للسلطة التكنوقراطية، للعقلنة بالمفهوم التايلوري، ورفض للسلطة الجالياتية، لتسلط الهوية، لأن كل ذات فاعلة هي في آن واحد كونية وجالياتية"[5]، وأضاف في مقام آخر بأنّ "الذات الفاعلة ليست من يتكلم بصيغة المتكلم المفرد أنا فحسب، بل من يعي حقه في استعمال هذه الصيغة"[6].

كما اعتبر أنّ المعنى الذي تصبو إليه هذه الذوات من خلال فعلها هو التاريخانية (historicité)، وقدّ وضّح هذا بقوله " أُسَمِّي ما أدعوه تاريخانية ذلك البعد الذي يتخذه المجتمع اتجاه نشاطه، والفعل الذي يحدد من خلاله مقولات ممارسته، فليس المجتمع ما هو كائن، ولكن ما يفعله لكي يكون عن طريق المعرفة التي تخلق وضعاً للعلاقات بين

[4]Raymond BOUDON: Traité de sociologie. PUF. 1992. p22

[5]فيليب كابان وجان فرانسوا دوتيه، علم الاجتماع: من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية أعلام وتواريخ وتيارات، ترجمة إياس حسن، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، سورية ـ دمشق، الطبعة الأولى 2010، ص 226

[6]Alain Toraine-un nouveau paradigme: pour comprendre le monde aujourd'hui- Fayard 2005 Paris

المجتمع ومحيطه، من خلال التراكم الذي يقتطع جزءاً من الناتج المتوفر من الدائرة المؤدية إلى الاستهلاك، عن طريق النموذج الثقافي الذي يتحكّم في الإبداعية بأشكال تخضع لنفوذ المجتمع العملية على سيره الذاتي، فهو الذي يخلق مجموع توجهاته الاجتماعية والثقافية بفعل تاريخي يكون فعلاً ومعنى"[7]، ويُقصد هنا بالتاريخانية امتلاك التاريخ لنفسها ويقع ذلك بإعادة إنتاج المجتمع لذاته عبر تأسيسه لتوجهاته الاجتماعية والثقافية النابعة منه، ممارساً بذلك هيمنة مضادة على الأنظمة التي تسعى دائما إلى تشكيل هذه التاريخانية.

أمّا مفهوم الباحث -وسنتناول هنا المختصين في العلوم الإنسانية- فهو كلّ من تلقى تكويناً أكاديمياً مكّنه من دراسة الظواهر وفق مناهج علمية صارمة، ويمكن أن يقع انتدابه ليشغل وظيفة خبير في مشروع ما، ويفكّ ارتباطه به ما إن ينتهي من أبحاثه حولهوبالتالي فإنّ علاقته بموضوع البحث نفعية بالأساس. أي أنّه شخص له رأسمال أكاديمي يقع اللجوء إليه لتأدية مهام/خدمات بحثية داخل مراكز الخبرة والتفكير (Think Tank) كما هو رائج في الدول الغربية.

كما سلف وذكرنا سابقاً بأنّه لا يوجد تعريف دقيق وجلي للباحث الفاعل في السوسيولوجيا أو باقي العلوم الإنسانية، لكن في المقابل يوجد مفهوم آخر ذو صلة والمتمثل في "المثقف" (L'intellectuel).

لقد مثّلت قضية "دريفوس" (Dreyfus) -وهو ضابط فرنسي يهودي المعتقد اتهمته فرنسا بالتخابر لفائدة الألمان، وزُج به في السجن تحت مسمى خيانة الوطن- لحظة تاريخية فارقة شهدت ولادة مفهوم المثقف، فقد وجّه إميل زولا (Emile Zola) رسالة إلى الرئيس الفرنسي فليكس فور في 23 جانفي 1898 بعنوان "أنا أتهم" (J'accuse)[8] يُندّد فيها بالمظلمة التي تعرّض إليها دريفوس طالباً إطلاق سراحه وردّ الاعتبار له.

[7]Alain touraine (1973): Production de la société, Paris: Le Seuil, P. 10
[8]Emile Zola- J'accuse! Et autres textes sur l'affaire Dreyfus- Paris: J'ai lu-2001

إنّ المظلمة المثارة في هذه القضية تابعة إلى هيئة الأركان والقضاء العسكريْن في فرنسا، وليست مرتبطة بالشأن العام، ولكن رغم ذلك سمح زولا لنفسه بأن يُعبّر عن امتعاضه وأن يدعو إلى الكشف عن الحقيقة وتطبيق العدالة. ومن خلال هذه الحادثة انبثق مفهوم المثقف الذي يواجه السلطة السياسية بالكلمة، ويساهم في تشكيل وعي الجماهير التي نزلت إلى الشوارع نُصْرة لذلك الضابط الذي أُنصف في قضيته فيما بعد ووقع إطلاق سراحه.

لكن مفهوم المثقف منذ تشكّله لم يحظَ بتعريف واضح بل ظلّ زئبقياً، فأنطونيو غرامشي (Antonio Gramsci) على سبيل المثال ابتدع مفهوم المثقف العضوي الذي جعله مناقضاً للمثقف التقليدي أي ذاك الذي يظلّ سجين برجه العاجي محافظاً بذلك على مسافة تفصله عن باقي الناس معتقدا بعلويته وأفضليته عليهم وبالتالي فهو متماهٍ مع ثقافة الطبقة السائدة، وقد أُسقطت عنه صفة/لقب المثقف لأنّه لم يتحسّس آلام شعبه، فيما يلتحم المثقف العضوي بهموم النّاس مواجهاً بذلك ما أسماه الهيمنة الثقافية، فالسلطة القائمة لا تنبني على القهر الفيزيقي للأفراد فحسب، بل كذلك على عامل القبول الذي تُكوّنه ثقافة الطبقة الحاكمة في أذهان الناس. وقد خلص غرامشي إلى اعتباره الاسمنت العضوي الذي يربط البنية التحتية بالبنى الفوقية ممّا يُتيح تشكيل "الكتلة التاريخية" التي تمتلك رؤى واستراتيجيات تمزج ما هو إيديولوجي بما هو ثقافي لتأسيس هيمنة ثقافية مضادة.

وقد تبنّى هذه الرؤية عدد قليل من المبحوثين، الذين أشاروا في أكثر من مرة إلى اعتبار ذواتهم مثقفين عضويين مهمتهم الالتصاق بالحركة من أجل تأطير الجماهير داخلها وبالتالي المراكمة من أجل اندلاع ثورة حقيقية تقلب موازين القوى وتقطع مع نمط الإنتاج السائد، وبالتالي تشييد نظام مجتمعي جديد على أنقاض ذلك المتهاوي، وقد تبيّن لنا أثناء إجراء المقابلات أنّ أصحاب هذه المقولة قد مرّوا جميعاً بتجربة سياسية في أحزاب يسارية.

من جهته وضّح ميشال فوكو (Michel Foucault) رؤيته حول المثقف في حوار أجراه قائلاً "يبدو لي بأنّ المهمة السياسية الحقيقية في مجتمع كمجتمعنا، هي نقد عمل المؤسسات، وخاصة تلك التي تبدو ظاهرياً وكأنّها محايدة ومستقلة، أي نقدها ومهاجمتها بطريقة يُنزع النقاب فيها عن العنف الذي تتضمنه بحيث نكون قادرين على النضال ضدّها. إذا كنّا نسعى إلى صياغة مجتمع المستقبل من غير نقد دقيق لهذه العلاقات بين مختلف أشكال العنف السياسي التي تمارس في مجتمعنا، فنحن مهددون بأنّ نرى سلطة الطبقة المهيمنة تُعيد إنتاج نفسها"[9].

انطلاقاً من هذه الشذرة نستخلص أنّ فوكو قد عرّف المثقف انطلاقاً من الدور المنوط بعهدته والمتمثل في تعرية وفضح ممارسات الأنظمة أو كما عبّر عنها فريديريك غرو (Frédéric Gros) بأنّ مهمة المثقف عند فوكو تتمثل في شجب العلاقات الخفية للسلطة. فالسلطة وفق تصوره ليست مجرّد مؤسسات ثابتة تمتلكها الطبقة المهيمنة بل إنّها صيرورة قائمة على الفعل والممارسة، أي بمعنى أنّها على عكس التصور الماركسي الكلاسيكي ليست بنية فوقية بل هي سيرورة محايثة[10] (Processus d'immanence) تعمل بشكل تقني في جميع المجالات الحياتية أي لا يمكن التعامل معها سوى على مستوى الميكرو-سلطوي، كما أنّها تُعبّر عن علاقات قوة قائمة على الحرب، وهذه الحرب تُدار على جبهتين: مادية ورمزية. فأبنية الدولة لا يتم المحافظة عليها دائما وأبداً بالقسر والتهديد، وإنّما أيضاً بالتلاعب بالعقول عن طريق الإعلام والمدارس والسجون...، بمعنى أنّ الحرب تستمر بوسائل أخرى.

ولمزيد توضيح مفهوم المثقف قام فوكو بطرح نموذجين متناقضين والمتمثلين في "المثقف الكلّي" و"المثقف المتخصّص"، وقد قال في هذا الصدد "ليس مثقّفو الكلّي هؤلاء سوى نسخ للأحزاب السياسية، على نحو ما. فلا، لا نريد هذا وأعتقد أن الحال

[9] خطر الجامعات (ومهمة المثقف الحقيقية تجاهها) عند ميشيل فوكو [En ligne]https://www.youtube.com/watch?v=Q7cg5sZAigQ (22 Mars 2019)

[10] نقصد بالمحايثة هنا فهم السلطة من داخلها أي لذاتها

ليست على هذا المنوال. في المقابل، أرى أن المثقّف الذي يسعه الانطلاق من العمل الفكري الذي يقوم به ليضطلع بمهمة إظهار الهشاشة التي تقوم عليها حالات الاستقرار الاجتماعي أو حالات الجمود الاجتماعي، التاريخية منها والسياسية والاقتصادية..."[11].

وهذا ما تعارض على نحو من الأنحاء مع مقولات رفعت من شأن المثقف الكلي كمفهوم "رجل القلم"، الذي صاغه توماس كارلايل (Thomas Carlyle)، واعتبر أنّه رأى النور مع اكتشاف تقنية الطباعة، وأكّد أنّ مهمته تتمثل في وراثة النبوة، إذ أنّ له القدرة على النفاذ إلى جوهر الحقيقة التي تخفى على عموم الناس. وبالتالي فهو صاحب أهمّ وظيفة وأشدّها تأثيراً في الوجود الإنساني برمته، فالمجتمعات في حالة تحوّل دائم وهؤلاء الأبطال/الأنبياء هم المسؤولون عن هذا التغيير.

لكنّ فوكو رأى أنّ المثقف الكلّي يُجسّد على نحو من الأنحاء مالك المعرفة، أو بالأحرى مالك الحقيقة الاجتماعية على غرار الماركسيين أو الوجوديين، والذي يعتمد على خطاب كلّي وشمولي وهو ما يُتيح له أن يُدْليَ بدلوه في كلّ قضية شائكة كانت أم بسيطة معتبراً نفسه ضمير المجتمع والمتحدث/المفكر نيابة عنه، مؤسساً بذلك إلى وهم "الحقيقة" وإضفاء شرعية عليه، كما أنّه يرى نفسه مُحرّك التاريخ والجسر الذي يقود المجتمعات نحو الأمام وقد قال بيار بورديو (Pierre Bourdieu) في هذا المقام "أقوال المثقفين تُساهم في صنع التاريخ وفي تغيير التاريخ"[12]، هذا الصنف من المثقفين هو حسب المنظور الفوكووي ليس مخطئاً في تقدير نفسه ودوره فحسب بل إنّه مضاد لحركة التاريخ من الأساس ويُعتبراً شرخاً في جينيالوجيا المثقف، فالواقع لا يحتمل أن يُنصب أحد نفسه وصياً عليه أو على تغييره لكنه على العكس من ذلك في أمسّ الحاجة إلى مطرقة نيتشه كي يهدم هذه الصورة الوهمية ويبني على أنقاضها مثقفاً آخر، وهو نفس ما ذهب إليه جان فرانسوا ليوتار (Jean-François Lyotard) حين تطرّق إلى "موت السرديات

[11] يتعذّر وجود المجتمعات بلا حركاتِ تمرّد - حوار مع ميشيل فوكو [En ligne]
http://post2modernisme.blogspot.com/2016/10/blog-post_57.html (21 Mars 2019)
[12] Pierre Bourdieu- Questions de sociologie- Paris: Les éditions de minuit 1984-P67

الكبرى" ذات التصوّرات الشمولية والكليانية كالديمقراطية والمجتمع الشيوعي، ويقصد بمفردة "موت" أنّ وجودهم غير ذي معنى.

لقد اعتبر فوكو أنّ "المثقف ليس مهمته نشر الوعي لأنّ الوعي كما المعرفة صارت مسألة مكتسبة لدى الجماهير، بل إنّ دوره النضال من أجل تقويض السلطة ومن ثمّة الاستحواذ عليها. "[13]، وبالتالي فإنّ عموم الناس لم تَعُدْ في حاجة إلى هذا الصنف من المثقفين لسبر أغوار واقعها، بل على العكس إنّ وجودهم يعكس في جوهره حضوراً **سلطوياً** باعتبارهم أرباب معرفة. وكأننا هنا أمام مثقف فرانكشتايني مشوّه التكوين، له ثقافة واسعة عابرة للاختصاصات، لكنها سفسطائية إذ لا تحمل أيّ مشروع.

وبالتالي فإنّ هناك دعوة إلى أن يُعيد المثقف تموقعه، وهذا يمرّ عبر "أن يكفّ عن تضخيم دوره التاريخي وأن يُقلع عن عادة انتداب النفس لأداء مهمات أعظم من حقل الثقافة ذاته"[14]. وقد اتفق مع فوكو في هذه الرؤية عدد من مفكري بعد الحداثة على غرار جيل دو لوز وجاك دريدا.

لقد كانت ماي 68 رجّة كوبرنيكية جديدة لهذا المثقف الكلّي، وقد قال محمد شيخ في هذا الصدد واصفاً سارتر "إنّ أحداث ماي 68 التي انخرط فيها، والتي مسَّته بعمق، كانت بالنسبة إليه فرصة لمُراجعة جديدة. لقد أحسَّ بتشكُّك من وجوده كمُثقَّف، ومن ثَمَّ اضطر في غضون السنتين اللاحقتَين، إلى التساؤل حول دور المثقف، وإلى تغيير التصوُّر الذي كان لديه عنه. وهو في هذا يَتشابه كثيرًا مع مفكري 68. إنّ المثقف محكوم عليه بالانسحاب من الأفق كإنسان يُفكِّر بدل الآخرين: أن نُفكِّر بدل الآخرين، أمرٌ غير معقول يضع مفهوم المثقف ذاته موضع سؤال"[15].

---

[13]Daniel Mouchard:" INTELLECTUEL SPÉCIFIQUE"- Presses de Sciences Po 2009- P 309

[14]بلقزيز، عبد الإله. نهاية الداعية. الممكن والممتنع في أدوار المثقفين. طبعة 2 بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2010 ص149

[15]محمد الشيخ- المثقَّف والسلطة- دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت لبنان- الطبعة الأولى 1991- ص109-110

في الجهة المقابلة لهذا الكلّي، نجد المتخصص أي ذلك المثقف الذي يُفكّر في مجال محدّد أي أنّه لا يكون مثقفاً سوى في مجال تخصّصه وبالتالي فإنّه يتحتّم عليه أن يُراقب عمل السلطة ويكشف آليات ممارستها للهيمنة انطلاقاً من حقله المعرفي، ومن خلال نقده وتشخيصه لما هو كائن سيفرض تغييراً، وقد قال محمد شيخ موضحاً رؤية فوكو لهذه المسألة "لا يتمثَّل عمل المثقَّف في تشكيل الإرادة السياسية للآخرين؛ إذ بأي حقٍّ يَفعل ذلك، بل في إعادة مساءلة البديهيات والمصادرات عن طريق التحليلات التي يقوم بها في المجالات الخاصة به، وفي زعزعة العادات وطرق العمل والتفكير، وفي تبديد المألوف والمسلَّم به، وفي استعادة حدود القواعد والمؤسسات"[16].

يرى فوكو أنّ السلطة تستغل قدر الإمكان الثورات المعرفية لمزيد تحديد الناس وتطوير تقنيات مراقبتها لهم، فاليوم -كما هو ملاحظ- ومع هذا الانفجار التكنولوجي صارت السلطة مدركة لتوجهات الناس ورؤاهم وما يصبون إليه لمزيد التحكّم فيهم كما أفادنا بعض المبحوثين. وللتصدّي لهيمنة السلطة فإن على المثقف المتخصّص أن يلعب دوره التاريخي والمتمثل في فك شفرات الميكرو-سلطوي وتحليل الخطاب السياسي. وقد قال في هذا الصدد "لا نستطيع إعادة بناء منظومة فكرية إلاّ بالاعتماد على مجموعة من الخطابات، ويتمّ ذلك على نحوٍ يكون الغرض منه هو العثور خلف العبارات نفسها على قصدية الذات المتكلّمة وعلى نشاطها الواعي، وما كانت ترغب في قوله، بل وعلى بعض التجلّيات اللاّشعورية التي برزت إلى واضحة النهار، فيما قالته صراحةً أو ضمناً، ومهما يكن من أمر، يتعلق الأمر في تاريخ الفكر بإعادة إنشاء خطاب جديد، بالعثور على الكلام الأبكم الهامس الذي لا يتوقّف، والذي يُحرّك من الداخل الصوت الذي نسمعه. يتعلق باستعادة النص الرفيع اللامنظور الذي يسري ما بين السطور المكتوبة ويزاحمها أحياناً. فتحليل الفكر هو دوماً وباستمرار تحليلٌ يسعى إلى البحث عن المعنى الحقيقي وراء المعنى المجازي، يبحث عن ما وراء الخطاب، سؤاله يتجه بلا شك نحو استكناه ماذا كان يقال وراء ما قيل فعلاً؟ أمّا تحليل الحقل الخطابي، فيتّجه وجهة أخرى مغايرةً، همُّه الأساسي

[16] محمد الشيخ-مرجع سابق- ص108

هو التعامل مع العبارة كشيءٍ قائمٍ بالذات، لا يُحيلُ إلى مستوى آخر، والنظر إلى ما في خصوصيتها وتميّزها كحدثٍ لا أصول له، وتحديد شروط وجودها، وتعيين حدود تلك الشروط بكيفية واضحة ودقيقة أكثر...، لا يتوجّه الاهتمام إطلاقاً إلى البحث خلف ما هو ظاهر، عن الثرثرة شبه الصامتة لخطاب آخر، بل إلى إظهار لماذا صعب عليه أن يكون غير ما كان، وكيف ينفرد عن باقي الخطابات الأخرى"[17].

في نفس السياق اعتبر فرنسوا ليوتار أنّ دور المثقف الحقيقي يتمثّل في إنتاج السرديات الصغرى القادرة على التغيير، وقد قصد بها "جميع الخطابات التي تشكلها جماعات أو تجمعات معينة لتحقيق أهداف محددة لها طبيعة مرحلية وبراغماتية، ولا تحمل الطابع الشمولي ولا السلطوي القسري للسرديات الكبرى"[18].

لكنّ راسل جاكوبي (Russell Jacoby) في كتابه "آخر المفكرين" عارض هذا المتخصص واعتبر أنّه تقهقر وارتداد نحو الوراء، فالمثقفون وفق رؤيته حتى نهايات الخمسينات من القرن المنصرم كانوا موسوعيين وبإمكانهم مخاطبة الجماهير بلغة يفهمونها وهذا ما مكّنهم حسب رأيه من القيام بدور ريادي في طرح قضايا مجتمعاتهم والاضطلاع بمهمة التغيير، لكنّ بعد تلك الحقبة اضمحلت تلك الصورة وحلّ محلّهم ما يُعرف بالأكاديميين المتخصصين الذين لا يمتلكون لا القدرة ولا الإمكانيات التي تخوّل لهم مخاطبة الجماهير والتغلغل داخلها، واقتصر دورهم على تطوير اللغة العلمية لاختصاصاتهم بطريقة تجعل فهمها عسيراً على عموم الناس، وبذلك يصير هؤلاء الباحثون الأكاديميون فئة مغلقة ومنعزلة عن محيطها الاجتماعي.

وهذا ما أثارته الباحثة النسوية ميراندا فريكر حين تناولت مسألة "الجور الهرمينوطيقي" والتي وضحت فيها عدم قدرة الضحايا على وصف تجاربهم وآثارها النفسية عليهم نظراً

[17]ميشيل فوكو- حفريات المعرفة- ترجمة سالم يفوت- المركز الثقافي العربي بيروت الدار البيضاء- الطبعة الثانية 1987- ص 27
[18]مديحة دبابي ما بعد الحداثة- خطابات الـ"ما بعد": في استنقاد أو تعديل المشروعات الفلسفية- دار الأمان الرباط 2013- ص154

إلى محدودية رأسمالهم الثقافي[19]، وبالتالي فإن المثقف عموماً هو صوت من لا صوت له على حدّ تعبير ادوارد سعيد، ومن لا صوت لهم هنا هم الفاعلون الذين يعانون من فقر ثقافي.

أمّا بورديو فقد أوجد الخيط الفاصل بين السوسيولوجي التقني، والآخر النقدي الملتزم، فالأوّل يُوظّف معارفه ورأسماله الأكاديمي/الثقافي من أجل كسب رزقه وهذا ما يجعل بينه وبين موضوع البحث هوّة عميقة، أمّا الثاني فهاجسه التغيير المجتمعي والنضال، ولذلك فإنّه يُعرّي العنف الرمزي للسلطة ويخترق الحقل الاجتماعي لينتج المعنى -أي ذلك المبني على النقد والسّاعي إلى بيان الحقيقة- الذي تحتاجه الجماهير، موظفاً في ذلك معارفه المتّصلة بالفعل، ولذلك اعتبر أنّ السوسيولوجيا هي العلم الذي **"يُزعج"**.

استناداً إلى ما تمّ ذكره في جينيالوجيا المثقف من جهة ومن تحديد مفهومَيْ الفاعل والباحث وما خلصنا إليه من خلال المقابلات البحثية من جهة ثانية، فإننا سنقدّم محاولة صياغة مفهوم للباحث الفاعل.

إنّه كلّ فرد تلقّى تكويناً أكاديمياً في مجال العلوم الإنسانية، وفي ذات الوقت ليس منفصلاً عمّا حوله نائياً بنفسه عن مشاغل مجتمعه، إذ أنّه ملتزم بها وساعٍ إلى المساهمة في التغيير.

إنّ هؤلاء الباحثين الفاعلين على غرار السوسيولوجي والمؤرخ ورجل القانون وعالم النفس والخبير في مجال العلوم السياسية يوظفون معارفهم في مجالات تخصصهم -على نحو تطبيقي وبشكل تفاعلي داخل مراكز الخبرة والتفكير وسط الحركة الاجتماعية- على نطاق الميكرو-سلطوي لاستقراء الواقع الموضوعي من زوايا مختلفة ونقد آليات السلطة والأمراض التي قد تطال جسد الحركة الاجتماعية، وتحويل المطالب إلى مفاهيم سياسية ممّا يُخوّل لهذه الحركة صياغة توجه عام يفرض هيمنة مضادة على الماكرو-سلطوي.

[19]Miranda Fricker-Epistemic Injustice: Power and the ethics of knowing- New York: Oxford-University Press-2007-P147

نحن -الآن وهنا- إزاء فاعل جديد، فاعل لم يصطف وراء كارل الماركس (Karl Marx) الذي أوكل له مهمة التغيير، كما أنّه لم يتخندق مع سلافوي جيجك (Slavoj Žižek) الذي اعتبر أنّ الخلاص يكمن في إعادة تفسير العالم، والّذي قال في هذا الصدد "في القرن العشرين ربما حاولنا أن نُغيّر العالم بسرعة شديدة، وقد حان الوقت لتفسيره مرة أخرى، فلنبدأ التفكير"[20].

إنّه فاعل متماهٍ مع السياق التاريخي الذي يوجد فيه، يُراوح بين فهمه ومشاركته **الميدانية** باقي الفاعلين -على اختلافهم- في الفعل والتغيير. كما أنّه مدرك لانسيابية الواقع وهذا ما يجعله ينأى بنفسه عن سلطة المتكلم باسم الحركة الاجتماعية أو ادّعائه أنّه المالك الوحيد للمعرفة، بل على عكس ذلك فهو يُولّد خطاباً تشاركياً أفقياً يبني معانٍ ورؤى واستراتيجيات.

2- سمات الباحث الفاعل:

إنّ الباحث الفاعل هو ابن بيئته أولاً وقبل كلّ شيء، وهذا ما يجعله يعي خصوصية واقعه المجتمعي بعيداً عن الأطر النظرية الكبرى والإسقاطات التي جعلت الوجود الإنساني خاضعاً لمبدأ الحتميات، ويقطع مع الشمولية التي تمنح للمفكر عموماً حق العبور من اختصاص لآخر جاعلا الواقع محكوماً بنظريات عامة، وهذا تقريباً ما جاء على لسان عدد من المبحوثين الذين أكّدوا أنّهم لم ينطلقوا ممّا درسوه طيلة تكوينهم الأكاديمي فقط، بل إنّهم راوحوا بينه وبين المعطيات الواقعية.

إنّ الباحث الفاعل هو كلّ فرد انتقل من سلطة المتكلم "أنا" إلى "نحن" التشاركية التي ترنو إلى التفكير بعقل جماعي، فكلّ يفكك ويحلل ويفهم معطيات الواقع -التي يُلاحظها عن

[20] سلافوي جيجك: لنبدأ التفكير الآن
[En ligne] https://www.youtube.com/watch?v=mxe_6F_pm3o (18 Mars 2019)

قرب باعتباره مشاركاً ميدانياً في الحركة الاجتماعية- حسب اختصاصه الأكاديمي، نائياً بنفسه عن فعل المراكمة حسب الأدبيات الماركسية مؤسساً إلى إستراتيجية تفاعليةتشاركية يلتحم فيها المختصون على اختلاف حقولهم المعرفية بباقي الفاعلين وسط مراكز الخبرة والتفكير داخل الحركة الاجتماعية، ليقع الانتقال من الكوجيتو الديكارتي **"أنا أفكر إذاً أنا موجود"** إلى **"نحن نفكّر إذاً نحن نُغيّر"**، فعمليات التفكير الجماعي هذه التي تنبني على إستراتيجية التفكيك هدفها تحويل المعرفة إلى أدوات فعل وتغيير.

هؤلاء الباحثون الفاعلون وظّفوا إلى حدّ مُعيّن إحدى التقنيات البحثية والمتمثلة في الملاحظة بالمشاركة، والتي اعتبر توران أنّ المغزى منها فهم الآخر من خلال تقاسم ظروف مشتركة، إذ أنّها تجعل الباحث يخترق الظاهرة موضوع الدراسة ويتحوّل من خلالها من مجرّد مراقب إلى فاعل وهو ما يُتيح له فهماً أعمق لها. لكنّ ما يُميّز الفاعلين الباحثين عمّن يعتمدون هذه التقنية، أنّهم منخرطون فعلياً في الممارسة ويتبنون القضايا التي قامت عليها الحركة الاجتماعية، وبالتالي فإنّ دورهم لا يقتصر فقط على الفهم عن طريق التشبيك فيما بينهم وإنّما كذلك بترجمة هذا الفهم إلى أدوات نضالية. وهذا ما ذهب إليه جلّ المبحوثين.

هذا الأمر يقودنا كذلك إلى الكشف عن تقاطع مع تقنية البحث الأوريستيكي (Heuristique)، والتي تقوم على فكرة مفادها أنّ الباحث لا يمكنه فهم ظاهرة ما وهو يكتفي بالتحديق من الخارج، بل عبر انغماسه فيها وعيش تجربة حيّة داخلها، فهذا البحث يشغله المعنى وليس القياس، والجوهر وليس ما هو ظاهري، والكيفي وليس ما هو كمّي، والتجربة وليس السلوك"[21].

[21]P.Paillé "Recherche Heuristique" Mucchieli et collaborateurs- Dictionnaires des méthodes qualitatives en sciences humaines- Editions Armand Colin-2019-pp 217-218

من زاوية أخرى، صار من الجليّ أنّ مواقع الاتصال الاجتماعي اليوم تتضمن معاملات إنسانية مكثفة يتقاطع فيها التواصلي بالتجاري كما تُعرض فيها المواقف السياسية وتُنظّم من خلالها وعبرها التظاهرات الثقافية وتُنسق فيها الحركات الاحتجاجية. وقد أكّد يورغن هابرماس (Jurgen Habermas) على أنّ وسائل الإعلام الالكتروني أحدثت جدلاً واسعاً وسط الجماهير، وأتاحت أثراً كبيراً في القضايا العامة في النخبة والسلطة والجماهير على حدّ السواء[22].

تبعاً لما أوردناه فإنّ ما يُميّز الباحث الفاعل قدرته على توظيف المجال السيبيراني من أجل فتح نقاشات تخصّ قضايا الحركة في مواقع التواصل الاجتماعي وعرض إنتاجه المعرفي وقد يتحوّل داخل هذا الفضاء الافتراضي إلى فرد مؤثر وقائد رأي، وهو ما يُتيح له أن يجعل من الفضاء الرقمي أداة احتجاج وحشد.

إنّ هذا الباحث الفاعل هو بمثابة المثقف الذي أدرك أنّ العالم صار مرادفاً لـ "عن بُعْد" فهو اختزال لتكثيف زماني ومكاني في آن واحد، وهو ما اعتبره جورج غيرفيتش (georges gurvitch) "تكثيف الزمنية". ففي وقت وجيز تتدفق أخبار عديدة وأحداث لا حصر لها، تسقط أنظمة وتحدث انقلابات وتتحرك مجموعة ضغط هنا ويُحكم ناشطون في بلد ما بالإعدام، ومن واجب الباحثين الأكاديميين مسايرة هذا الواقع الانسيابي واستغلال وسائط التواصل الجماهيري الحديثة.

وسنذكر على سبيل التعداد لا الحصر، مساهمة الفاعلين المختصين في مجال القانون في حملة "مانيش مسامح" على توضيح الإخلالات وما قد ينجم عن تمرير مشروع قانون المصالحة، وقد استندوا في ذلك -بالتوازي مع نشاطهم الميداني- على منشورات فايسبوكية مكتوبة بالعامية التونسية، كما اعتمدوا على النقل الحي والمباشر لجلسات نقاشهم عبر مواقع التواصل الاجتماعية وفسح المجال أمام تفاعل النّاس الذين لم يكونوا مدركين لحيثيات الموضوع، هذا دون التغاضي عن دور هشتاغ "مانيش_مسامح" الذي

[22]Jurgen Habermas-L'espace public- Paris:Payot 1987

ساهم في نشر القضية على نطاق واسع. وينسحب نفس الأمر على ما قام به الأساتذة في احتجاجاتهم الأخيرة والحملة المرافقة لها تحت اسم "جيش_الطباشير". الأمر الّذي ساعدهم على اختراق التعتيم الذي فرضه الإعلام الرسمي أو الرؤية الواحدة التي مرّرها.

انطلاقاً من كلّ ما سبق ذكره نستطيع أن نستشفّ سمة مركزية لهذا الفاعل الباحث، فهو انغماسي مخترق للحدود الزمكانية، إذ أنّه لم يظلّ سجين الأطر الأكاديمية كالجامعات والمنتديات ولم تقتصر إنتاجاته على مذكرات البحث أو المقالات العلمية التي لا يقرؤها سوى أهل الاختصاص، بل صار منفتحاً على الفضاء العام بما في ذلك الرقمي منه مستعملاً في ذلك لغة سلسلة، وبالتالي فقد جعل من معرفته أداةً للمساهمة في التحليل والتغيير.

3- اختلافه عن باقي الفاعلين:

إنّ الفاعلين في صلب الحركة الاجتماعية غير متماثلين، لا من حيث بيئتهم الاجتماعية أو الأسباب الكامنة وراء انخراطهم في هذه الحركات ولا حتى أدوارهم داخلها.

فالمبدع -وسنخصّ بالذكر أولئك الذين يمارسون فن الشارع- حين يُناصر حركة ما، فإنّه يسعى إلى تقديم مشروع مزدوج يجمع بين ما هو سيميائي من جهة والقضايا التي تنادي بها تلك الحركة من جهة ثانية نظراً إلى ما تملكه الفنون على اختلاف أشكالها من قدرة على التعبير الرمزي. فأثره الفنّي هو عبارة عن حالة نقدية سياسية واجتماعية ذات بُعد احتجاجي، فمثلا في تونس يوم 14 جانفي 2018 نزلت فرقة مسرحية تحمل اسم "كتيبة المهرجين الناشطين" للاحتجاج على مشروع قانون المالية للسنة ذاتها، وقد تعمّدت عناصرها استفزاز عناصر البوليس بالقيام بحركات معينة، ومردّ هذا كسر الصورة النمطية المرتبطة بهيبة/قوة جهاز البوليس وهذا ما يُحرّر وفق نظرهم باقي الناس من سجن الخوف ويُحفّزهم على المطالبة بحقوقهم. هذا علاوة على سرعة انتشار الأثر الفني على مواقع التواصل الاجتماعي -على غرار أغاني الراب أو "Slam" أو صور الغرافيتي أو

المسرح الارتجالي...- وما يرافقه من شحنات وجدانية، تكون مدخلاً يُمكّن من حشد أنصارٍ جددٍ لهذه الحركة.

لذلك، يمكن القول إنّ حضور التعبير الفني في الفضاء العام هو انتقال بصوت الرفض/المقاومة من الدوائر المهمشة إلى أمكنة لا يمكن تجاهلها، فارضاً هيمنة مضادة لتلك التي تعتقد بحقها القسري في تشكيل الفضاء المديني العام، وهنا تستمد مقولة أنّ **"الإبداع حاجة اجتماعية"** مشروعيتها.

من جهته يرى الصحافي -بغضّ النظر عن انخراطه في حركة اجتماعية ما من عدمه- كلّ العالم المحيط به على أنّه **"حركة اجتماعية ضخمة ومكثّفة"** عليه تفكيكها إلى أجزاء وفق آليات الخبر وأولوياته. وإن خصصنا بالذكر الصحفي الذي يكون جزءاً من حركة اجتماعية فالواقع الموضوعي يقول إنّ وجوده هناك يمكنه من مادة خام وفيرة عليه أن يُحوّلها إلى مادة للاستهلاك الخبري أي صناعة الخبر. وهنا يبرز دوره في الحركة الاجتماعية، فهو أولاً وقبل كل شيء أداة لحمل الصورة والوقائع إلى الجماهير، ممّا يساعد على توسيع قاعدة المناصرين، كما أنّ تعريته وفضحه لحقائق معيّنة يُحرج السلطة ويجعلها في أغلب الأحيان تُعير انتباهها للإشكالات التي تطرحها جماعة الضغط تلك أو الأخرى.

من جهة أخرى شهد عالم الصحافة تطوّراً في تقنيات البحث عن المعلومة وفي شكل نقل الخبر، وقد استفادت من ذلك الحركة الاجتماعية، ونخصّ بالذكر هنا صحافة الانغماس التي يتحوّل فيها الصحافي من وسيط لنقل/صناعة الخبر إلى جزء من القصة الصحفية، فهو لا يعتمد فقط على تحليل الخطاب وتقديم أدلّة ملموسة حول قضية ما، فله موقف داخل هذه الحكاية إذ يُوجّه اتهامات مشفوعة بالمؤيّدات ويُحرك المياه الراكدة التي تَخْفَى عن باقي الناس، والتي تكون ذات صلة بالقضايا الكبرى للحركة الاجتماعية على غرار الفساد الإداري أو المحسوبية مثلاً، ونذكر هنا على سبيل المثال ما قام به موقع

"انكيفادة" حين قام بالكشف عن وثائق بنما وما لاقته من موجة استهجان واسعة، وقد تكون تحقيقات من هذا النوع في بعض الحالات شرارة تنبثق منها حركة اجتماعية ما.

إنّ المسرح الأثيني قديماً كان وجهاً من وجوه الصحافة، لكن شكل نقل الصورة إلى الجماهير مختلف. فلئن كانت المقالة آليةً صحفيةً، فإن الدراما والكوميديا والتراجيديا آليات وأطر فنية لإيصال البلاغ ذاته إلى الناس. بل وتوجد مدارس حديثة على غرار مدرسة الصحافة الجديدة الأمريكية ومن أعلامها توماس وولف، والتي تشير إلى أنّ الكتابة الصحفية هي فن قصصي أولاً وقبل كلّ شيء. وبالتالي ليس للصحفي أي اختلاف، في جوهر الوظيفة، مع الفنان. إذ أنّ الاختلافات بينهما تقنية وفي وجهة الخطاب، فالفنان يُخاطب على نحو من الأنحاء وجدان الجمهور في حين يسعى الصحافي إلى توضيح رؤى الجماهير والاشتغال حول إنتاج تمثلات جمعية مبنية على منطق الاستدلال والبرهان لمسائل معينة.

أمّا المدوّنون فقد شكّلوا الفئة الأشدّ فاعلية خلال الفترة الممتدة 17 ديسمبر 2010 و14 جانفي 2011 -هذا دون أن نتغاضى عن دورهم ما قبل هذه الفترة وما بعدها- إذ نقلوا الأحداث لحظة بلحظة وفضحوا الممارسات القمعية التي انتهجتها السلطة مشكلين بذلك إعلاماً بديلاً، وهذا ما جعلهم على نحو من الأنحاء قادة رأي، لهم القدرة على الحشد والتعبئة ضدّ النظام وقتئذ أو ما اعتبروه منصفاً فيما بَعْد.

في المقابل نجد أنّ الباحث الفاعل لا ينفعل وجدانياً كما الفنان، فالفنان يُترجم حنقه أو تعاطفه بعمل فنّي، فما هو شعوري مولّد الفن. كما أنّه لا يبحث عن سبق إعلامي كالصحافي، ولهذا فهو لا يخاطب وجدان المتلقي ولا يكتفي بوظيفة الإخبار، بل يقوده ما هو علمي، وتُحرّكه ديناميكية الفكر بما تفترضه من نقد ونقاش واتصال وابتكار، ولذلك بانخراطه في الحركة الاجتماعية يستطيع أن يخترق الظاهرة من الداخل ويفهمها عن كثب ويُحلّل تشاركياً أدوات الهيمنة التي تُسخّرها الدولة ويبني بشكل تفاعلي وأفقي استراتيجيات الفعل من أجل التغيير.

4- حدود دور الباحث الفاعل في الحركة الاجتماعية:

امتداداً للعنصر السابق سنلاحظ أنّ تأثيره على الجماهير يبقى محدوداً مقارنة بالفنان الذي يسهل عليه استفزاز وجدان المتقبل، أو بالصحفي الذي قد يؤلب تقريره حول مسألة ما الرأي العام وقد يكون سبباً مباشراً في تكوّن حركة اجتماعية. فالجماهير لا تتأثر بالخطاب العلمي ولا يستهويها كذلك كما ذكر أحد المبحوثين. وهذا الأمر نستخلصه أيضاً من الملاحظة البسيطة، فمستخدمو مواقع التواصل الاجتماعي يتناقلون الأخبار الصحفية أو الأثر الفني أكثر بكثير من مقال رأي أو منشور فايسبوكي حول تحليل معيّن لخطاب سياسي أو أمر آخر.

كما تجدر الإشارة أيضاً إلى أنّ الفنانين والصحفيين والمدوّنين سبّاقون في توظيف الرقمي في التواصل مع المتقبلين، ويعتمدونه أكثر من الباحثين الفاعلين الذين ظلّ تعاملهم الشبكي محتشماً بالمقارنة بهم علاوةً على كونه جاء متأخراً نسبياً.

من زاوية أخرى نجد أنّ الفنان بإمكانه التنبؤ بالمستقبل باعتماد حدسه نظراً إلى كونه عكس الباحث الفاعل متحرر من سطوة النظري، فعلى سبيل المثال تنبّأت إحدى مجموعات الألتراس باقتراب اندلاع الثورة في إحدى أغانيها، إذ قيل بصريح العبارة "يا الحكومة Révolution قريبة"[23].

إنّ الحديث عن موضوعية -كما وصف أحد المبحوثين- مسألة أشبه بـ"الإيثوبيا" (Utopie) أو الهراء، ويُذكرنا هذا بما قال ناجي العلي واصفاً موقعه داخل مجتمعه "أنا متهم بالانحياز، وتلك تهمةٌ لا أنفيها. أنا منحاز لمن هم **تحت**"، كما أنّ لا شيء موضوعي في البناء الصحفي سوى الحدث فقط، لأنه حاصل لا محالة لكن النقاش سيكون دائراً حول كيفية تناول الصحفي للحدث الاجتماعي، فهو منحاز إلى رؤية ما في هذا السياق.

[23] Manifesto - una storia Club Africain[En ligne] https://www.youtube.com/watch?v=hWv6HaiHZlc (27 Mars 2019)

إنّ الفاعل الباحث كغيره من الفاعلين -وإن كان بمستوى أقل نسبياً- منحاز بالضرورة لرؤية الحركة الاجتماعية، فلو كان غير مؤمن بها لما انخرط فيها من الأساس، وقد وضّح أحد المبحوثين هذه المسألة قائلاً بأنّ الباحث سواءً كان فاعلاً أم لا فهو محكوم بموضوعية البحث ومنهجه، لكنّ الباحث الفاعل يكون أكثر انحيازاً في بعض الاستنتاجات والتقديرات في المواقف التي تنتصر للحركة الاجتماعية التي انخرط فيها عبر أبحاث موضوعية.

لكنّ مبحوثاً آخر أكّد على كون التقنيات البحثية من السهل التحكّم فيها وتوجيهها من قِبَلِ الباحث وهذا ما سيجعله قادراً على الخلوص إلى استنتاجات تنتصر إلى الحركة الاجتماعية وتتجاوز في بعض الأحيان الإخلالات التي قد تطالها من الداخل.

نحن إذاً إزاء تطبع (Habitus) مزدوج، فما هو علمي يتقاطع مع ما هو نضالي على حدّ تعبير أحد المبحوثين، وقد أضاف في ذات السياق أنّ الحديث عن "وضعنة" البحث، لا يمرّ إلاّ عبر وضعنة الباحث نفسه أي عبر تحديد علاقته بموضوع البحث، وبما أنّ الباحثين الفاعلين منصهرون داخل الحركة الاجتماعية موضوع البحث فقضية الوضعنة تُصبح غير ذات معنى.

من زاوية أخرى، لطالما تمّ اعتبار العلوم الإنسانية من الشعب الهزيلة التي لا يتوجّه إليها سوى الذين اجتازوا امتحان الباكالوريا بتحصيل ضعيف مقارنةً بشعب أخرى على غرار الدراسات الهندسية أو الطب، كما أنّ الباحث الأكاديمي في هذا المجال فُرضت عليه في السابق عزلة بشكل جعله يسير على يمين الجماهير وشواغلها، وعلاوة على ذلك كانت مواضيع على غرار الفساد أو الاستبداد تابوهات، ناهيك عن ضحالة الإنفاق على البحث العلمي ممّا جعلهم سجناء الأطر النظرية، وطبعاً لا يمكننا أن نتغاضى عن صراع التموقع داخل هذا الحقل، الذي يستأثر به الأساتذة الجامعيون ولا مكان فيه للباحثين الشبان. من جهة أخرى مرّ أغلب المبحوثين بتجارب سياسية لكنّهم لم يحظوا بمواقع قيادية أو

زعامتية في أحزابهم. وكما سبق وأشرنا إلى أسبقية الفاعلين الآخرين في الانخراط والتأثير صلب الحركة الاجتماعية.

جميع هذه المعطيات وغيرها في حاجة إلى تحليل وتأمل أعمق وتناول أوسع، فهذا العنف الرمزي -المتعدد والخاضع لمبدأ التعقيد- المسلّط على الباحثين قد يكون سبباً من الأسباب الكامنة وراء انخراطهم في الحركة الاجتماعية بُغية التنازع الخفي مع باقي الفاعلين حول قيادة الحركة باعتباره ردّ فعل على هذا العنف، لردّ الاعتبار لهم كذوات وللاعتراف بهم كما سبق ووضّح ذلك أكسل هانث (Axel Honneth) عند تناوله لمفهوم "الاعتراف"، وقد اعتبر أنّ الأفراد في حاجة إليه لتقدير ذواتهم وتحقيق شعور بأهميتهم داخل النسيج المجتمعي.

توليف:

كنّا قد حاولنا من خلال هذه الورقة، تحديد مفهوم للباحث الفاعل، نظراً إلى شُحّ الأبحاث السوسيولوجية التي تناولت هذا الموضوع، فغالباً ما يتمّ التطرّق إلى المثقف بوصفه مُصدّراً/مساهماً في التفكير النقدي لا مشاركاً فعلياً في الحركة الاجتماعية، وخلصنا إلى كون هذا الباحث الفاعل يلتحم بالجماهير في ميادين الاحتجاج جالباً معه رأسماله الأكاديمي وأدواته التحليلية لتطويع هذه المعرفة من خلال التجربة الحيّة وعلاقته بباقي الفاعلين من جهة والسياق العام من جهة ثانية، ليُسهم بعد ذلك مع باقي الفاعلين على اختلاف اختصاصاتهم العلمية في تحويل ذاك الزخم النظري المبني بشكل تشاركي إلى أدوات فعل وتغيير تُمارس هيمنة مضادة على الماكرو-سلطوي.

أمّا في مستوى ثانٍ، فقد سعينا إلى تحديد بورتريه هذا الباحث الفاعل، وتوصلنا إلى أنّه أوجد الخيط الرابط بين المعارف التي اكتسبها وبين الواقع الاحتجاجي الذي انخرط فيه وتبنى قضاياه، كما أنّه مدرك لحدوده كعقل مفكر، إذ ليس بإمكانه فهم ما يدور حوله من

زاوية تحليله فحسب، بل بالتشبيك والتشارك مع باقي المختصين، والاقتراب أكثر من تمثلات الجماهير للواقع. هذا دون صرف النظر عن ضرورة توظيفه للفضاء الرقمي.

بعد ذلك قمنا بإجراء مقارنة بينه وباقي الفاعلين النوعيين كالفنان أو الصحافي أو المُدوّن، واستنتجنا أنّ الفنان والصحافي والمدوّن بإمكانهم حشد الجماهير، نظراً إلى كون الفنان له القدرة على مخاطبة وجدان الجماهير، أمّا الصحافي والمدوّن فإنهما يستطيعان توجيه الرأي العام، لكن في المقابل يُحاول الباحث الفاعل تفكيك آليات هيمنة السلطة انطلاقاً من حقله المعرفي وهو ما يُخوّل له ابتداع أدوات فعل وتغيير.

أمّا في النهاية، فقد حاولنا ضبط حدود الفاعل الباحث، وكيف أنّ إدارة البحث العلمي باعتباره ينشد الموضوعية والالتزام النضالي في ذات الوقت أمر صعب، وتتطلب مُساءلة "وضعنة" الباحث ذاته في علاقته بالموضوع.

خاتمة:

إنّ فرادة موضوع كهذا لا تتعلق فقط بقلّة الدراسات التي تناولته بل كذلك في القيمة المضافة التي قد يُحقّقها، فليس من السهل أن يتحوّل مثقف ظلّ لقرون إنساناً يُفكّر بدل الآخرين إلى ذات متفاعلة مع من/ما حولها في بناء معارف متخصّصة تصبو كي تُشكّل تصوّراً عاماًيواجه الهيمنة الرمزية للسلطة التي صادرت حتى أحقية الأفراد في "عالم متخيّل"، أو أن ينتقل من التحدّث بضمير المتكلم "أنا" إلى ضمير الجماعة التي تفكّر وتفعل وتُغيّر "نحن".

على الباحث الفاعل أن يُعيد النظر من جديد في موقعه صُلب الحركة الاجتماعية، وأن يعي دوره بعيداً عن حاجزيْ التضخيم والاستنقاص، كي يبلغ المعادلة التي تجعل من تكوينه الأكاديمي والتزامه وجهين لذات العملة!

ما الذّي يجمع فسيفساء تشتتت قطعها لكنّها في نظر بحوثٍ علميّة تراها ملتئمة ومجمّعة ومتناسقة؟ كيف لبحوث مُماثلة أن تُقرأ مجتمعة رغم فرادة كلّ إشكاليّة على حدة؟ إشكاليّات تُقارب واقعا متشابها ومختلفا تتحدّ فيه أضداده وتتفرق في آن؟ كيف لنا أن نبحث عن تشخيص واقع مماثل؟ واقع فيه فنّان راب من هوامش المدينة يُغنّي ليحتجّ على مركزيّة الحقّ في الحياة، وحركة احتجاجيّة هامشيّة تعادي التهميش بفعل جماعي يلغي من ألغاه ولو كان من مساندِيه. واقع فيه شباب "أولتراس" يتنبؤون بالثورة ولا تعنيهم صيرورتها، وباحثون يتفاجؤون بها فينخرطون في فعل ينشد تحقّقها ! فيه مُدوّنون يناضلون في شبكة عنكبوتيّة ضدّ نظام سقط رأسه فصار كأرملة سوداء! وحملات أفقيّة في فعلها تنتشر كجذمور في بيئة احتلّتها أشجار السلطة التّي لا تثمر وفنّانون يجعلون الفضاء العامّ مكانا لرفض الواقع، الواقع برّمته. واقع فيه أساتذة غادر طباشيرهم الأقسام ليحتجّ في الشوارع، عُمّالٌ في مصانع الظلّ لا ضوء يُسلّط على نضالاتهم، مُهرّجون يجعلون البوليس يَبتسم ويعوّضون مناضلين أتعبتهم كلاسيكيّة احتجاجهم وأحزنتهم في آن! واقع ترسمه صحراء الكامور بوشائج أوليّة تنتخب فاعلين عاديّين لكن بفعل لم تعتده السلطة، واقع تُصوّره مشاهد جرّرات في جندوبة تغادر حقلا لتذهب إلى حقل آخر :من الحقل الفلاحي إلى الحقل الاحتجاجي ! وواحات جمنة التّي تحتجّ فيها الدقلة في عراجينها مطالبة بالحقّ في الأرض

47 شارع فرحات حشاد، العمارة «أ»، الطابق الثاني 1001 تونس
الهاتف : 64 76 25 71 216+ الفاكس : 65 76 25 71 216+
contact@ftdes.net - Contact@ostunisie.org

FTDES
Forum Tunisien pour les Droits Economiques et Sociaux

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG

CCFD TERRE SOLIDAIRE
Soyons les forces du changement